سلسلة في ظلال السنة

الحديث الرابع عشر

تخيير الأنبياء في آجالهم

الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

تخيير الأنبياء في آجالهم

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنّة
الحديث الرابع عشر

تخيير الأنبياء في آجالهم

الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

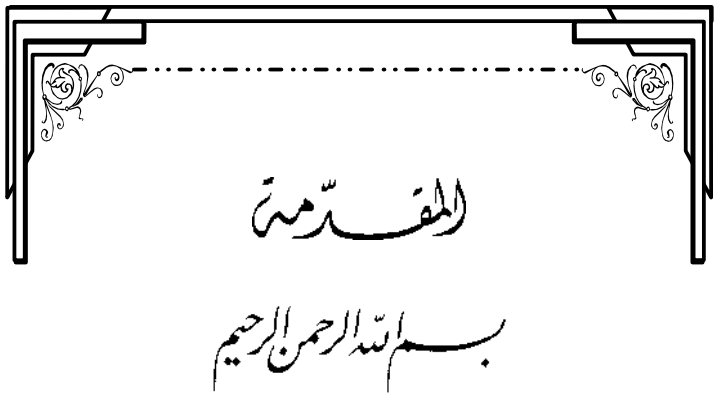

اللهم إنّا نحمدك حمدًا يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد..**

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم

واستيعابها، فما كان شرحًا يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسبًا لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبيّ ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثرًا في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها «في ظلال السنّة».

واللهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه

الشيخ الدكتور سالم بن عبد الغني الرافعي

في طرابلس ـ لبنان

بتاريخ ٨/محرم/١٤٤٣هـ الموافق له

١٦/آب/٢٠٢١م

متن الحديث

عَن أَبِي مُوَيْهِبَةَ رضي الله عنه، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ فَانْطَلِقْ مَعِي**»، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ. فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلَها آخِرُها، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى**».

قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: «**يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي ﷻ وَالْجَنَّةِ**». قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا

وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ. قَالَ: «**لَا وَاللهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ**». ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ انْصَرَفَ. فَبُدِئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَبَضَهُ اللهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ»(١).

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٥٩٩٧، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم ٤٣٨٣، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسّنه ابن عبد البر في «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» (١١١/٢٠).

شرح الحديث

هذا حديث عظيم يُخبر فيه أبو مُويهبة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أيقظه من نومه ليلًا.

وأبو مويهبة رضي الله عنه، كان عبدًا يُقيم في قبيلة مُزَيْنة، فاشتراه رسول الله ﷺ وأعتقه، وهو من الطبقة الثالثة من المهاجرين. وشهد غزوة المُريسيع مع رسول الله ﷺ. وكان يقود جَمَل عائشة رضوان الله عليها. وكَانَ يَبِيتُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيُخَالِطُ أَهْلَ الصُّفَّةِ[1].

(١) انظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٤/٣٠٠)، والبداية والنهاية ط إحياء التراث (٥/٣٤٦)، والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٤/١٤٧)، وأسد الغابة ط العلمية (٦/٣٠٢)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/٢٧)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/١٨٨).

وقوله أنّ النبيّ ﷺ أيقظه من نومه ليلًا، يدلّ أنّه كان نائمًا في مكان عام وليس في بيت خاصٍ به، فلم يستأذن الرسول ﷺ في الدخول عليه، وهذا يؤكد ما سبق ذكره أنه كان يبيت في المسجد ويخالط أهل الصُفّة رضي الله عنه وعنهم جميعًا.

ولمّا أيقظه النبيّ ﷺ من نومه، أخبره بأنّ الله تعالى أمره في هذه الساعة أن يزور البقيع، وهو مَدْفَن أهل المدينة، حتى يدعو بالمغفرة لمن دُفن فيه من أصحابه، وطلب النبيّ ﷺ من أبي مويهبة رضي الله عنه أن يصحبه في هذه الزيارة.

وكان من هَدْي النبيّ ﷺ أن يصطحب معه في تنقّلاته بعض الصحابة، حتى ينقلوا ما يشاهدونه أو يسمعونه منه ﷺ إلى سائر الصحابة رضي الله عنهم، فلا يفوتُ الأمّةَ من هَدْي نبيّها عليه الصلاة والسلام شيء.

استجاب أبو مويهبة رضي الله عنه لطلب النبيّ ﷺ بالحال، وانطلق معه إلى البقيع. ولمّا دخل النبيّ ﷺ إلى البقيع وصار في وَسْط القبور، بدأ كلامه ﷺ مع أهل القبور بصيغة الخطاب، كأنّهم حاضرون أمامه ويسمعون كلامه.

فقال ﷺ مخاطبًا لهم: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلَها آخِرُها، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى**».

إذًا ابتدأ النبيّ ﷺ خطابه لهم بالسلام، فسلّم عليهم ثم هنّأهم بما آلت إليه أحوالهم: أَنْ ماتوا على الإسلام وفي حياة نبيّهم، ونَجَوْا من الفتن التي أوشكت أن تأتي على الناس الأحياء فتعصف بهم وتشتدّ عليهم.

فالفتن المقبلة لا تُشبه بحال تلك الفتن التي مرّت على أهل القبور، حينما كانوا أحياء في هذه الدنيا، بل هي فتن مظلمة حالكة شديدة السواد. وشبّهها النبيّ ﷺ بقِطع الليل المظلم، لأنه لا يُرى من خلالها بصيصُ ضوء. ثم وصفها بأنها فتن متلاحقة تأتي وراء بعضها البعض، فلا تنقضي فتنة حتى تُطِلّ الأخرى برأسها على إثرِها سريعًا، فلا يتسنّى للمؤمن أن يلتقط أنفاسه وهذا هو معنى قوله ﷺ: «**يتبع آخِرُها أوَّلَها**». ثم وصفها بوصفٍ ثانٍ

وهي أنها فتن تصاعديّة، بمعنى أنها تبدأ شديدة ثم لا تخِفّ تدريجيًّا بل تزداد شدّة، وكلما انقضت فتنة جاءت التي بعدها أشدّ منها وأقسى، وهكذا دواليك، وهذا هو معنى قوله ﷺ: «**الآخرة شرّ من الأولى**».

وبعد أن خاطب النبيّ ﷺ أهل البقيع، أقبل على أبي مُويهبة رضي الله عنه يخبره بأمر عُرض عليه، كان هو الباعث على القيام بهذه الزيارة الليلية.

فَقَالَ له: «**يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي عز وجل وَالْجَنَّةِ**». قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ. قَالَ: «**لَا وَاللهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ**».

أي: أخبر النبيّ ﷺ أبا مويهبة رضي الله عنه بأنّ الله تعالى قد خيّره بين أمرين: بين أن يعيش أمدًا طويلًا حتى يَرى ما يفتح الله تعالى على أمّته من بلدان ومدائن، وما تحويه خزائنها من كنوز وأموال، ومن

جملتها كنوز كسرى وقيصر، ثم يموت بعد ذلك ويدخل الجنّة، وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «**إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا**»، فالخُلد يطلق في اللغة أحيانًا على معنى العيش الطويل. فخُيّر نبيّنا ﷺ بين هذا، وبين أن يتعجّل لقاء ربّه فيموت عمّا قريب ويدخل الجنّة، وهو المراد بقوله ﷺ: «**وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي ﷻ وَالْجَنَّةِ**».

طبعًا فوجئ أبو مويهبة رضي الله عنه بهذا الخبر، وخشي أن يختار النبيّ ﷺ الخيار الثاني، فتمنّى عليه بلهفة وحُرقة أن يختار البقاء في الحياة أطول مدّة مُمكنة، حتى ينعموا بجواره ويسعدوا بصحبته.

وبَيْنا أبو مويهبة رضي الله عنه ينتظر في لهفةٍ قرار النبيّ ﷺ، جاءه الجواب الذي لا يتمنّاه، وهو أنّ النبيّ ﷺ سَبَق واختار التعجّل إلى لقاء ربه ﷻ.

ولك أن تتصوّر بعد هذا ما أصاب أبا مويهبة رضي الله عنه من حزن وجَزَع على فِراق رسول الله ﷺ.

قال أبو مويهبة رضي الله عنه: «ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ ثُمَّ انْصَرَفَ. فَبُدِئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي

قبَضَهُ اللهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ». أي: بعد أن انتهى الحوار الذي جرى بين النبيّ ﷺ وبين أبي مويهبة رضي الله عنه، توجّه النبيّ ﷺ إلى ربّه ودعا لأهل هذا البقيع بالمغفرة، ثم انصرف راجعًا إلى بيته. وما إن أدركه الصباح حتى شَعَر عليه الصلاة والسلام بوجع ينتابُه، ثم استمرّ به وجعه أيامًا قليلة قريبًا من أسبوع، ثم توفّاه الله ﷻ.

زيارة الوداع

بعد سرد حديث أبي مويهبة رضي الله عنه، وشرح ما ورد فيه من خطاب وحوار وقرار، فَهِمنا الباعث على زيارة النبيّ ﷺ للبقيع في تلك الليلة.

فالنبيّ ﷺ خيّره الله تعالى في تلك الليلة في أَجَله، بين أن يُعجّل له فيه أو يؤخّره له آمادًا مديدة، فاختار ﷺ التعجّل، فأمره الله تعالى عندها أن يودّع أصحابه الأحياء منهم والأموات، فبدأ عليه الصلاة والسلام بتوديع الأموات، فزار البقيع ليلًا وسلّم على أهله ثم استغفر لهم وانصرف. وفي صبيحة تلك الليلة قام ﷺ بزيارة شهداء أحد مودّعًا لهم، فدعا لهم، ثم رجع إلى المدينة. ولمّا رجع إلى المدينة قام على المنبر فخطب آخر خطبة في حياته، وودّع فيها الأحياء من أصحابه رضي الله عنهم.

والدليل على توديعه لشهداء أحد: ما رواه البخاري ومسلم من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**». قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(١)].

فهذه الصلاة على شهداء أحد لا يُراد بها صلاة الجنازة، لأن الصلاة على الجنازة تكون قبل الدفن، وأمّا هذه فكانت بعد الدفن بل وتأخّرت ثماني سنين، فدلّ على أن المراد بها توديع النبيّ ﷺ لشهداء أحد بالدعاء لهم.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح حديث عقبة بن عامر ﷺ: معناه خرج إِلَى قَتْلَى أُحُدٍ وَدَعَا لَهُمْ دُعَاءَ مُوَدِّعٍ[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٠٤٢، ومسلم برقم ٢٢٩٦.

(٢) شرح النووي على مسلم (٥٩/١٥).

وقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْأُمِّ: «جَاءَتِ الْأَخْبَارُ كَأَنَّهَا عِيَانٌ مِنْ وُجُوهٍ مُتَوَاتِرَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُصَلِّ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ، وَمَا رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى عَلَيْهِمْ وَكَبَّرَ عَلَى حَمْزَةَ سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً لَا يَصِحُّ، وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَارَضَ بِذَلِكَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ أَنْ يَسْتَحْيِيَ عَلَى نَفْسِهِ. قَالَ: وَأَمَّا حَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، فَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِ الْحَدِيثِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ، يَعْنِي وَالْمُخَالِفُ يَقُولُ لَا يُصَلَّى عَلَى الْقَبْرِ إِذَا طَالَتِ الْمُدَّةُ. قَالَ: وَكَأَنَّهُ ﷺ دَعَا لَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ حِينَ عَلِمَ قُرْبَ أَجَلِهِ مُوَدِّعًا لَهُمْ بِذَلِكَ»[1].

وقوله في الحديث: «**كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ**»، فيه تصريح بأنّها زيارة وداعيّة على غِرار زيارته لأهل البقيع.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: وتوديعه للأحياء والأموات، هو أنه صلى على الموتى واستغفر لهم

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/٢١٠).

وهنّأهم بما هم فيه من سَبْقهم للفتن. وتوديعه للأحياء: هو نصيحتهم وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا، وإيماؤه إلى أنه منتقل عنهم إلى الآخرة، وأنه سابق لهم إلى الحوض، فهو مَوْعِدُهم(١).

وقوله في حديث عقبة: «ثم طلع المنبر»، أي: ثم رجع إلى المدينة فصعد منبره في المسجد النبوي. قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه خرج إِلَى قَتْلَى أُحُدٍ وَدَعَا لَهُمْ دُعَاءَ مُوَدِّعٍ ثُمَّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ»(٢).

فحديث عقبة ظاهرٌ في أن النبيّ ﷺ زار شهداء أحدٍ أولًا مودّعًا لهم، ثم بعدها رجع إلى المدينة وصعد المنبر مودّعًا للأحياء من أصحابه.

وأما الدليل على أن زيارته لأهل البقيع سبقت زيارته لشهداء أُحُد، فهو: ما ورد في حديث أبي مويهبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيّ ﷺ بعد أن أنهى زيارته للبقيع ليلًا، بدأ به وجعُه في صبيحة تلك الليلة.

قال أبو مويهبة: «ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ

(١) فتح الباري لابن رجب (٣٧٨/٣).
(٢) شرح النووي على مسلم (٥٩/١٥).

انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قبَضَهُ اللهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ»، أي: لم يكن عليه الصلاة والسلام موجوعًا أثناء زيارته للبقيع، وإنّما ابتدأ به وجعه في صبيحة ليلة الزيارة. وأمّا في زيارته لشهداء أحد، فقد ورد في بعض الروايات: أنه كان معصوبَ الرأس أثناء زيارتهم، وهذا يدلّ على أنّ الوجع كان قد بدأ به ﷺ، ممّا يعني أن زيارته لشهداء أحد وقعت بعد زيارته لأهل البقيع.

وأمّا خطبته عليه الصلاة والسلام في المدينة، والتي تلت زيارته لشهداء أحد، فقد ورد في بعض الروايات: أنه خطبها عليه الصلاة والسلام وهو جالس ومعصوب الرأس، وهذا يدلّ على أن الوجع اشتدّ به بعد زيارته لشهداء أحد.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد كان ﷺ أتى أهل البقيع بالليل فاستغفر لهم، ثم ذهب إلى شهداء أحد بالنهار فاستغفر لهم، ثم رجع فخطب هذه الخطبة، وودّع الأحياء. ففي المسند عن أبي مويهبة أن رسول الله ﷺ خرج ليلة إلى البقيع فاستغفر لأهل البقيع، وقال: «**ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه**

الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع بعضها بعضًا، يتبع آخرها أولها، الآخرة شرٌ من الأولى»، ثم قال: يا أبا مويهبة، إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي، فاخترت لقاء ربي والجنة. ثم انصرف، فابتدأه وجعه الذي قبضه الله فيه.

وذكر ابن سعد بإسناده عن زيد بن أسلم، قال: «أُمر رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل مرّة يقال له: صلِ على أهل البقيع، فيفعل ذلك، وقال: «**اللَّهُمَّ اغفر لأهل البقيع**»، ثم أُمر أن يأتي الشهداء، فذهب إلى أحد، فصلى على قتلى أحد، فرجع معصوب الرأس، فكان بدء الوجع الذي مات فيه ﷺ»[1].

وأما خطبته ﷺ بعد زيارته لشهداء أحد، وتوديعه فيها للأحياء من أصحابه، فقد وردت في عدّة روايات، منها:

ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ

(١) فتح الباري لابن رجب (٣/٣٧٩).

الخُدْرِيِّ ﷺ، قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ**»، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ، إِنْ يَكُنِ اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ؟» فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ العَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا. قَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، لَا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ**»[1].

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ، قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ، فَقَعَدَ عَلَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا،**

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٦٦، ومسلم برقم ٢٣٨٢.

وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ. سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا المَسْجِدِ، غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ»[(١)].

وروى البخاري ومسلم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ، قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ، كَالْمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: «**إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**». قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»[(٢)].

وروى البخاري ومسلم من حديث أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، قال: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالعَبَّاسُ ﷺ، بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا. فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ

(١) أخرجه البخاري برقم ٤٦٧.
(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٠٤٢، ومسلم برقم ٢٢٩٦.

عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ المِنْبَرَ، وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»(١).

ففي هذا الحديث ذَكَر أنس رضي الله عنه أنه مَرَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَالْعَبَّاس بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فسألهم أحد الرجلين عن سبب بكائهم، ورجّح ابن حجر رحمه الله أن الذي سألهم هو العباس، لِكَوْنِ الْحَدِيثِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِهِ عبد الله وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ(٢).

فقالت الأنصار: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ منّا، أَيِ: تذكّروا الجلسات التي كانوا يجلسونها مع النبيّ ﷺ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ، فَخَشَوْا أَنْ يَمُوتَ مِنْ مَرَضِهِ فَيَفْقِدُوا مَجْلِسَهُ، فَبَكَوْا حُزنًا عَلَى فَوَاتِ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٧٩٩، ومسلم برقم ٢٥١٠.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٢١/٧).

وقَوْلُهُ: «**الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي**»، قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ جَمَاعَتِي وَخَاصَّتِي الَّذِينَ أَثِقُ بِهِمْ وَأَعْتَمِدُهُمْ فِي أُمُورِي، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: ضَرَبَ مَثَلًا بِالْكَرِشِ لِأَنَّهُ مُسْتَقَرُّ غِذَاءِ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ بَقَاؤُهُ. وَالْعَيْبَةُ: وِعَاءٌ مَعْرُوفٌ أَكْبَرُ مِنَ الْمِخْلَاةِ، يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ فِيهَا ثِيَابَهُ وَفَاخِرَ مَتَاعِهِ وَيَصُونُهَا، ضَرَبَهَا مَثَلًا لِأَنَّهُمْ أَهْلُ سِرِّهِ وَخَفِيِّ أَحْوَالِهِ[١].

وقَوْلُهُ: «**وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ**»، يُشِيرُ إِلَى مَا وَقَعَ لَهُمْ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ من الْمُبَايعَة، فانهم بَايعُوا على أن يُؤوا النَّبِيَّ ﷺ وَيَنْصُرُوهُ، عَلَى أَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ، فَوَفَوْا بِذَلِكَ، «**وَبَقِي الَّذِي لَهُم**»، وَهُوَ: دُخُول الْجنَّة[٢].

وقوله: «**فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»، والمراد بذلك فيما سوى الحدود[٣].

فهذه الأحاديث بيّنت ما ورد في آخر خطبة

---

(١) شرح النووي على مسلم (٦٨/١٦).
(٢) فتح الباري لابن حجر (١٢٢/٧).
(٣) شرح النووي على مسلم (٦٩/١٦).

خطبها النبيّ ﷺ مودّعًا فيها أصحابه، وكانت بعد زيارته لشهداء أحد واشتداد المرض به.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الخطبة التي خطبها النبيّ ﷺ في هذا اليوم كانت آخر خطبة خطبها على المنبر، فعرّض فيها باختياره لقاء الله على المقام في الدنيا، وأخبر أنه أُعطي مفاتيح خزائن الدنيا، وخيّر بين أن يبقى ما شاء الله وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه، ولكنّه لم يصرّح بتخييره في نفسه، وإنما قال: «**إن عبدًا خُيّر**»، فلم يتفطّن لذلك أحد غير أبي بكر الصديق، وكان أبو بَكْر أعلمهم برسول الله ﷺ وأفهمهم عنه، وهذا من الفهم في العلم الذي يَخُصّ الله به من شاء من عباده.

وذكر في هذه الخطبة تخصيص أبي بكر من بين الصحابة كلهم بالفضل، وأومأ إلى خلافته بفتح بابه إلى المسجد، وسدّ أبواب الناس كلهم، ففي ذلك إشارة إلى أنه هو القائم بالإمامة بعده، فإن الإمام يحتاج إلى استطراق المسجد، وذلك من مصالح المصلين فيه.

وفي هذه الخطبة وصّى بالأنصار، وأمر من يلي الأمر بالإحسان إليهم، وفيه إشارة إلى أنه ليس لهم من الأمر شيء، كما ظنّه من قال منهم للمهاجرين: منّا أمير ومنكم أمير.

وفي هذه الخطبة أخبر عن نفسه ﷺ أنه فَرَط لهم على الحوض، يعني: أنه سابق لهم إلى الحوض، وهو ينتظرهم عنده، فهو الموعد بينه وبينهم. وحذّر من الاغترار بزهرة الدنيا، والركون إليها؛ فإنه كان قد أعطي خزائنها فاختار لقاء ربه قبل ذلك، وفتحت بعده على أمّته. وهذا كله ثابت عنه ﷺ، وقد خرّجه البخاري في كتابه هذا، فبعضه من حديث أبي سعيد، وبعضه من حديث عقبة بن عامر، وبعضه من حديث ابن عباس، وبعضه من حديث أنس. وروي أيضًا أنه ﷺ وصّى في تلك الخطبة بتنفيذ جيش أسامة، وذكر فضله، ووصّى به خيرًا»[1].

(١) فتح الباري لابن رجب (٣/٣٧٦).

فوائد الحديث

❖ الفائدة الأولى: التحذير من الفتن المُظلمة

خاطب النبيّ ﷺ أهل البقيع، وهنّأهم بنجاتهم من الفتن المظلمة التي ستُبتلى بها الأمّة بعد وفاته. وإنّما وقعت الفتن المظلمة بعد وفاة النبيّ ﷺ، لأن الفتن المظلمة يُقصد بها ما ينزل بالناس من أمور عِظام وأحداث جسام، بحيث يلتبس حالُها على الناس، فلا يعرفون وَجهها ولا سُبُل الخروج منها، وهذا لا يكون إلا بعد وفاته ﷺ. أمّا في حياته عليه الصلاة والسلام، فمهما تعظم الأحداث أو تشتبه الأمور، فإنّ رسول الله ﷺ يتولى الكشف عنها وإزالة ملابساتها، بحيث لا يبقى فيها التباس على الناس، وبالتالي تضمحلّ الفتن المظلمة ولا تستقرّ.

وقد أطلع الله تعالى نبيّه ﷺ على الفتن التي

ستقع في أمّته من بعده، وما ستجرّه على الناس من ويلات ومِحَن. وأخبرنا النبيّ ﷺ أنّ أكثر ما يُصيب أمّته من بعده من فتن، إنّما يأتيها من قِبَل أمرين:

الأمر الأوّل: من الحِرص على الإمارة، وما يترتّب عليه من تنازع ثم تحزّب ثم تقاتل.

الأمر الثاني: من الانشغال بالأهواء والفلسفات الطارئة على عقيدة الأمّة، وما ينتج عنه من تفرّق ثم تبديع وتضليل ثم تقاتل.

ومن هنا خاف النبيّ ﷺ على أمّته من مَغبّة هذين الأمرين، لذلك وصّاهم بالسمع والطاعة لمن تولّى أمرهم، وإن كان فيهم من هو أجْدر منه وأوْلى منه بالإمارة، ما دام يقودهم بكتاب الله وسنّة نبيّه. كما وصّاهم باتباع سنّته والتزامها بشدّة، والحذر ممّا يبتدعه الناس في مسائل الدين من فلسفات وأهواء ما أنزل الله بها من سلطان.

فروى أبو داود عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ، وَحُجْرِ بْنِ حُجْرٍ، قَالَا: أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ

أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾[١] فَسَلَّمْنَا، وَقُلْنَا: أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ. فَقَالَ الْعِرْبَاضُ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢].

وتحذير النبيّ ﷺ لأمّته من الفتن التي ستكون من بعده، أكبر دليل على كمال شفقته عليهم وحرصه على هدايتهم، فما من فتنةٍ عَلِم النبيّ ﷺ أنّها ستُصيب أمّته من بعده إلا حذّرهم منها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم ٤٦٠٧.

ومن تتبّع أحاديث النبيّ ﷺ في الفتن الكائنة بعده، وكيف حذّر أمّته منها، وكيف أرشدهم إلى سُبُل النجاة منها، لأدرك حقًا معنى قول الله ﷻ في نبيّه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

❖ الفائدة الثانية: مدى تعلق الصحابة بالنبيّ ﷺ

لمّا أخبر النبيّ ﷺ صاحبه أبا مويهبة رضي الله عنه، بما عَرَض عليه ربّه سبحانه من شأن التخيير في الأجل، رَجَاه أبو مويهبة رضي الله عنه بكل لهفة وحُرقة أن يختار طول الأجل.

وهذا يدلّنا على مدى تعلق الصحابة بالنبيّ ﷺ، وكيف لا، وقد أخرجهم الله تعالى به من الظلمات إلى النور، حتى صاروا هُداة للبشرية بعد أن كانوا عِبئًا عليها.

ومن في الأنام مثل محمّد ﷺ في هدايته

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

وإرشاده، أو في عطفه وحنوّه، أو في نوره وبركته، وأنّى لمن عاشر الحبيب وأنِس بصحبته أن يتخيّل فراقه ولو للحظة واحدة.

ويمكننا من خلال عرض بعض المواقف، أن نستشفّ مدى تعلق الصحابة ﷺ بالنبيّ ﷺ، وهو غَيْض من فيْضٍ ممّا كان عليه واقع حالهم ﷺ.

❖ الموقف الأول:

روى الطبراني عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوتَكَ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَأَنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ. فَلَمْ يَرُدَّ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام بِهَذِهِ الْآيَة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ

وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1][2].

وجاء في رواية أخرى لهذا الحديث عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَوَلَدِي وَأَهْلِي وَمَالِي، وَلَوْلَا أَنِّي آتِيكَ فَأَرَاكَ لظننتُ أَنِّي سَأَمُوتُ، وَبَكَى الْأَنْصَارِيُّ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَبْكَاكَ؟» قَالَ: ذَكَرْتُ أَنَّكَ سَتَمُوتُ وَنَمُوتُ، فَتُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَنَحْنُ إِنْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ كُنَّا دُونَكَ. فَلَمْ يُخْبِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلِيمًا﴾، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبْشِرْ»»[3].

❖ الموقف الثاني:

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم ٤٧٧، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٩٣٣.

(٣) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان (٢/٥٠٥).

كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَقُومُ لَهُ فِي حَوَائِجِهِ نَهَارِي أَجْمَعَ، حَتَّى يُصَلِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، فَأَجْلِسَ بِبَابِهِ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ، أَقُولُ: لَعَلَّهَا أَنْ تَحْدُثَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حَاجَةٌ فَآتِيهِ بِوَضُوئِهِ[1] وَحَاجَتِهِ. قَالَ: فَمَا أَزَالُ أَسْمَعُهُ ﷺ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، حَتَّى أَمَلَّ فَأَرْجِعَ، أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنِي فَأَرْقُدَ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا، لِمَا يَرَى مِنْ خِفَّتِي لَهُ وَخِدْمَتِي إِيَّاهُ: «**سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْظِرْنِي أَنْظُرُ فِي أَمْرِي[2] ثُمَّ أُعْلِمُكَ بِذَلِكَ. قَالَ: «**فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ**».

قَالَ: فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي، فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ زَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَكْفِينِي وَيَأْتِينِي، فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِآخِرَتِي، فَإِنَّهُ مِنَ اللهِ ﷻ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ بِهِ. فَجِئْتُهُ، فَقَالَ: «**مَا**

---

(١) الوَضوء ـ بفتح الواو ـ هو الماء الذي يُتوضّأ به، وأما الوُضوء ـ بضم الواو ـ فهو فعل الوضوء.

(٢) أي: أمهِلني حتى أفكر في الأمر.

فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: **«أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟»** فَقُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. فَقَالَ: **«مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ؟»** فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ لِي: **«سَلْنِي أُعْطِكَ»**، وَكُنْتَ مِنَ اللهِ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ، نَظَرْتُ فِي أَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ وَزَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَأْتِينِي، فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِآخِرَتِي. فَصَمَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِي: **«إِنِّي فَاعِلٌ، فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»**[1].

الموقف الثالث:

لمّا مات النبيّ ﷺ رثاه حسان بن ثابت رضي الله عنه بقصيدة جميلة وصادقة ومؤثرة، تَنُمّ عن مدى تعلقه بالنبيّ ﷺ، جاء فيها:

---

(١) أخرجه مسلم مختصرًا برقم ٢٢٦، وأحمد مطولًا برقم ١٦٥٧٩، وحسّنه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على مسند أحمد، ط. الرسالة (١١٩/٢٧)، إلا أن حاجة ربيعة في رواية أحمد أنه قال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَشْفَعَ لِي إِلَى رَبِّكَ فَيُعْتِقَنِي مِنَ النَّارِ.

بِـطَـيْـبَـةَ رَسْـمٌ لِـلـرَّسُـولِ وَمَـعْـهَـدُ
مُنِيـرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ(١)

وَلَا تَـمْـتَـحِي الْآيَـاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ(٢)

وَوَاضِـحُ آثَـارٍ وَبَـاقِـي مَـعَـالِـم
وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ(٣)

بِـهَـا حُـجُـرَاتٌ كَـانَ يَـنْـزِلُ وَسْـطَـهَـا
مِـنَ اللهِ نُـورٌ يُـسْـتَـضَـاءُ وَيُـوقَـدُ(٤)

مَعَارِفُ لَمْ تُطمَسْ على الْعَهْدِ آيُها
أَتَاهَا الْبِلَى فَالْآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ(٥)

عَـرَفْـتُ بِـهَـا رَسْـمَ الـرَّسُـولِ وَعَـهْـدَهُ
وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ(٦)

---

(١) طيبَة: اسْم مَدِينَة النَّبِي ﷺ. والرسم: مَا بَقِي من آثَار الدَّار. وَتَعْفُو: تزول وتتغيّر. وتهمد: تبلى.
(٢) تمتحي: تَزُول. والآيات: العلامات.
(٣) المعالم: جمع معلم، وَهُوَ مَا يعرف بِهِ الشَّيْء.
(٤) الحجرات: جمع حجرَة، أي: مساكن زوجاته رضي الله عنهن.
(٥) لم تطمس: لم تغيّر.
(٦) المُلحِد: الّذي يضع الْمَيِّت فِي لحده.

ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ
عُيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ(١)
يُذَكِّرْنَ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ(٢)
مُفَجَّعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أَحْمَدَ
فَظَلَّتْ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ(٣)
وَمَا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عُشَيرَهُ
وَلَكِنْ لِنَفْسِي بَعْدَ مَا قَدْ تَوَجَّدُ(٤)
أَطَالَتْ وُقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا
عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ(٥)
فَبُورِكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
بِلَادٌ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّبًا
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ(٦)

---

(١) تُسعد: تُعين.
(٢) الآلاء: النعم، واحدها إِلىً، كمِعًى وأمعاء.
(٣) شفّها: شغلها.
(٤) العُشير: تصغير الْعُشْر. وتوجّد: من الوَجْد، وَهُوَ الْحزن.
(٥) تذرف الْعين: تسيل بالدمع. والطلل: مَا شخص من الْآثَار.
(٦) الصفيح: الْحِجَارَة العريضة. والمنضّد: الّذي جعل بعضه على بعض.

تَـهِـيـلُ عَـلَـيْـهِ الـتُّـرَبَ أَيْـدٍ وَأَعْـيُـنٌ
عَـلَـيْـهِ وَقَـدْ غَـارَتْ بِـذَلِـكَ أَسْـعَـدُ[١]

لَـقَـدْ غَـيَّـبُـوا حِـلْـمًـا وَعِـلْـمًـا وَرَحْـمَـةً
عَـشِـيَّـةَ عَـلَّـوْهُ الـثَّـرَى لَا يُـوَسَّـدُ

وَرَاحُـوا بِـحُـزْنٍ لَـيْـسَ فِـيـهِـمْ نَـبِـيُّـهُـمْ
وَقَـدْ وَهَـنَـتْ مِـنْـهُـمْ ظُـهُـورٌ وَأَعْـضُـدُ

يبكونَ من تبكي السّماوات يَوْمَهُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ[٢]

وَهَـلْ عَـدَلَـتْ يَـوْمًـا رَزِيَّـةُ هَـالِـكٍ
رَزِيَّـةَ يَـوْمٍ مَـاتَ فِـيـهِ مُـحَـمَّـدُ

تَـقَـطَّـعُ فِـيـهِ مَـنْـزِلُ الْـوَحْـيِ عَـنْـهُـمْ
وَقَـدْ كَـانَ ذَا نُـورٍ يَـغُـورُ وَيُـنَـجِـدُ[٣]

يَـدُلُّ عَـلَـى الـرَّحْـمَـنِ مَـنْ يَـقْـتَـدِي بِـهِ
وَيُـنْـقِـذُ مِـنْ هَـوْلِ الْـخَـزَايَـا وَيُـرْشِـدُ

---

(١) تهيل: تصب.

(٢) أكمد: أَحْزَن.

(٣) يغور: يبلغ الْغَوْر، وَهُوَ المنخفض من الأَرْض. وينجِد: يبلغ النجد، وَهُوَ الْمُرْتَفع من الأَرْض.

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِدًا
مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا

عَفُوٌّ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
وَإِن يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ

وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ
فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرُ مَا يُتَشَدَّدُ

فَبَيْنَا هُمْ فِي نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ
دَلِيلٌ بَهْ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ[١]

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَى
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا

عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُثَنِّي جَنَاحَهُ
إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ[٢]

فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدا
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِن الْمَوْتِ مُقْصِدُ[٣]

---

(١) النهج: الطَّرِيق الْبَيّن.
(٢) الكنف: الْجَانِب والناحية.
(٣) مقصد: مُصِيب، يُقَال: أقصد السهْم: إِذا أَصَاب.

فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللهِ رَاجِعًا
يَبكيهِ حَقُّ الْمُرْسَلَاتِ وَيُحْمَدُ[١]
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحُرْمِ وَحْشًا بِقَاعُهَا
لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعْهَدُ[٢]
قِفَارًا سِوَى مَعْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافَهَا
فَقِيدٌ يَبْكيه بَلَاطٌ وَغَرْقَدُ[٣]
وَمَسْجِدُهُ فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمّ أَوْحَشَتْ
دِيَارٌ وَعَرْصَاتٌ وَرَبْعٌ وَمَوْلِدُ[٤]
فَبَكِّي رَسُولَ اللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً
وَلَا أَعْرِفَنَّكِ الدَّهْرَ دمعك يجمُد
وَمَا لك لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يتَغَمَّدُ[٥]

---

(١) المرسلات (هُنَا): الْمَلَائِكَة. ويُروى: «جن المرسلات» يُرِيد الْمَلَائِكَة المستورين عَن أعين الْآدَمِيّين.
(٢) بِلَاد الْحُرم: يعْني مَكَّة وَمَا اتَّصل بهَا من الْحرم.
(٣) ضافها: نزل بهَا. وبلاط: مستو من الأَرْض. والغرقد: نوع من الشجر.
(٤) عرصات: ساحات.
(٥) سابغ: طويل. يتغمد: يسترهم.

فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَأَعْوِلِي
لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ[١]

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ

أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنَكَّدُ[٢]

وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ
إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلَدُ[٣]

وَأَكْرَمَ صِيتًا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوَّدُ[٤]

وَأَمْنَعَ ذِرْوَاتٍ وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَا
دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشَيَّدُ[٥]

---

(١) أعولي: ارفعي صَوْتك بالبكاء.
(٢) لَا ينكّد: لَا يكدّر بالمنّ الّذي يفسد النوال.
(٣) الطريف: المَال المستحدث. والتالد: المَال الْقَدِيم الْمَوْرُوث. وضنّ: بخل. ويتلد: يكْتَسب قَدِيمًا.
(٤) الصيت: السُمعة، أي: السُمعة الطيّبة. والأبطحي: الْمَنْسُوب إِلَى أبطح مَكَّة، وَهُوَ مَوضِع سهل متسع.
(٥) الذروات: الأعالي. وشاهقات: مرتفعات.

وَأَثْبَتَ فَرْعًا فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبَتًا
وَعُودًا غَذَّاهُ الْمُزْنُ فَالْعُودُ أَغْيَدُ[١]

رَبَّاهُ وَلِيدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَامُهُ
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ

تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ
فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يُفْنَدُ[٢]

أَقُولُ وَلَا يُلْفَى لِقَوْلِي عَائِبٌ
مِنَ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ[٣]

وَلَيْسَ هَوَايَ نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ
لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ
وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ[٤]

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: كانت الجمادات تتصدّع من ألم مفارقة الرسول ﷺ، فكيف بقلوب المؤمنين. لمّا فقده الجِذع الذي كان يخطب إليه قبل

(١) المزن: السَّحَاب. وأغيد: ناعم.
(٢) يفند: يعاب.
(٣) ولا يلفى: ولا يوجد. عَازِب الْعقل: غائب الْعقل.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام ت السقا (٦٦٩/٢).

اتخاذ المنبر، حنّ إليه وصاح كما يصيح الصبي، فنزل إليه فاعتنقه، فجعل يُهدّيه كما يُهدّى الصبيّ الذي يُسكّن عند بكائه، فقال: «**لو لم أعتنقه لحنّ إلى يوم القيامة**».

وكان الحَسَن إذا حدّث بهذا الحديث بكى، وقال: هذه خشبة تحِنّ إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحقّ أن تشتاقوا إليه.

وروي أن بلالًا كان يؤذن بعد وفاة النبيّ ﷺ قبل دفنه، فإذا قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، ارتجّ المسجد بالبكاء والنحيب، فلمّا دُفن ترك بلال الأذان.

ما أمرّ عيش من فارق الأحباب خصوصًا من كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طعم الفراق رضوى
لكاد من وجده يميد
قد حملوني عذاب شوق
يعجز عن حمله الحديد[1]

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١١١).

❖ **الفائدة الثالثة:**

فضل الصحابة الذين ماتوا في حياة النبيّ ﷺ

هنّأ النبيّ ﷺ أهل البقيع لكونهم ماتوا في حياة نبيّهم، فنَجَوْا من الفتن المظلمة التي ستعصف بالناس بعد وفاة النبيّ ﷺ.

وأيضًا مما تهنّأَ به أهل البقيع غير نجاتهم من الفتن: أن ماتوا في حياة النبيّ ﷺ، فتعاهدهم بالصلاة عليهم، وتشييعهم إلى مدافنهم، والقيام على قبورهم، والاستغفار لهم، ورعاية أهاليهم من بعدهم، وهذا خير عظيم لا يُقادَر قَدْرُه.

قالت عَائِشَة رضي الله عنها: «رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالْبَقِيعِ، وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي، وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ. قَالَ: «**بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ**»، ثم قَالَ: «**مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي، فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ، وَدَفَنْتُكِ؟**» قُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ. قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُم بُدِئَ

فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ»[١].

وكان النبيّ ﷺ يحرص على الصلاة على أصحابه حتى لا يُحرموا من هذا الأجر العظيم.

وذات يوم عاتب النبيّ ﷺ أصحابه حين لم يخبروه بموت امرأة مسكينة كانت تنظف المسجد، فتولّوا هم الصلاة عليها وحرموها أجر صلاة النبيّ ﷺ عليها، فلم يرضَ عليه الصلاة والسلام صنيعهم هذا، حتى ذهب بنفسه إلى قبرها وصلى عليها بعد أيام من وفاتها.

فروى أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا، فَقَالُوا: مَاتَت، قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي**»[٢]. قَالَ: فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا، فَقَالَ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**»، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا. ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد برقم ٢٥٩٠٨، وأصله عند البخاري برقم ٧٢١٧.

(٢) أي: أعلمتموني.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٤٥٨، ومسلم برقم٩٥٦ واللفظ له.

وروى الإمام أحمد عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَمِّهِ يَزِيدَ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا وَرَدْنَا الْبَقِيعَ، إِذَا هُوَ بِقَبْرٍ جَدِيدٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقِيلَ: فُلَانَةُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: «**أَلَا آذَنْتُمُونِي بِهَا؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كُنْتَ قَائِلًا صَائِمًا، فَكَرِهْنَا أَنْ نُؤْذِنَكَ[1]. فَقَالَ: «**لَا تَفْعَلُوا، لَا يَمُوتَنَّ فِيكُمْ مَيِّتٌ مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ أَلَا آذَنْتُمُونِي بِهِ، فَإِنَّ صَلَاتِي عَلَيْهِ لَهُ رَحْمَةٌ**». قَالَ: ثُمَّ أَتَى الْقَبْرَ فَصَفَّنَا خَلْفَهُ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا»[2].

❖ الفائدة الرابعة: تخيير الأنبياء في الأجَل

دلّ حديث أبي مويهبة رضي الله عنه على أن نبيّنا ﷺ قد خيّره الله تعالى في أجله، بين أن يعيش طويلًا حتى يرى ما يفتح الله تعالى على أمّته من فتوحات، وبين أن يتعجّل لقاء ربه، فاختار التعجّل إلى لقاء ربه سبحانه. وهذا التخيير كان قبل أسبوع واحدٍ تقريبًا من وفاته ﷺ.

(١) نؤذنك، أي: نُعْلِمك.
(٢) أخرجه أحمد برقم ١٩٤٥٢.

ثم عُرض عليه التخيير مرة ثانية عند وفاته ﷺ.

فروى البخاري ومسلم عن عَائِشَة رضي الله عنها زَوْج النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ فِي الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**». قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِذًا لَا يَخْتَارُنَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَعَرَفْتُ الْحَدِيثَ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ وَهُوَ صَحِيحٌ فِي قَوْلِهِ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْلَهُ: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**»[1].

ففي هذا الحديث أخبرت عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ كان يحدِّثُ قبل أن يَمرضَ: بأن الأنبياء عليهم السلام حين ينزل بهم الموت، فإنّهم يرَوْن

(١) أخرجه البخاري برقم ٦٣٤٨، ومسلم برقم ٢٤٤٤، واللفظ له.

مقاعِدَهم في الجنّة، ثم يخيّرون بين الموت العاجل أو الموت الآجل. ثم ذكَرت عَائِشَةُ ﵂ أنّه: لمّا نَزَلَ الموت بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكان رَأْسُهُ عَلَى فَخِذِها، أُغمي عَلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ بعد تلك الإغماءة، وجعل يصوّب بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ البيت، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**». فتذكّرت عائشة ﵂ حديثه الذي كان يحدّث به، قبل أن يَمرض، عن تخيير الأنبياء عند موتهم، وأدركت أنّ النبيّ ﷺ كان يخيّر في تلك اللحظة بين أن يموت الآن أو يُمَدُّ له في أجله، فلمّا قال: «**اللَّهُمَّ الرفيق الأعلى**»، عَرَفت أنه اختار لقاء الله تعالى على البقاء معهم، فقَالَت: إِذًا لَا يَخْتَارُنَا.

وهذا التخيير ليس خاصًا بنبيّنا ﷺ، بل هو عام في جميع الأنبياء، وقد دلّ عليه حديث عائشة ﵂ الذي ذكرناه آنفًا.

ويُستدلّ له أيضًا بما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: أُرْسِلَ مَلَكُ المَوْتِ إِلَى مُوسَى ﵇، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ المَوْتَ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ

فَقُلْ لَهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ المَوْتُ. قَالَ: فَالْآنَ. قَالَ: فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ**»(١).

ففي هذا الحديث بيّن نبيّنا ﷺ: أنّ ملك الموت لما جاء إلى نبيّ الله موسى عليه السلام ليقبض روحه، ردّه موسى عليه السلام بقوّة، لأنه يعلم أن الأنبياء يُخيّرون في آجالهم. ولمّا رجع ملك الموت إلى ربّه سبحانه، وأخبره بأنّ موسى عليه السلام لا يريد الموت الآن، أمره الله سبحانه وتعالى أن يعرِض على موسى عليه السلام عَرْضًا، وهو: أن يضع موسى عليه السلام يده على ظهر ثوْر، فما غطّت يدُه من شعر الثور، فإنّه يعيش بكل شعرة غطتها يدُه سنة كاملة، أي: إذا غطّت يدُه مائة شعرةٍ، مُدّد له في عمره مائة سنة وهكذا. فلما أَخبر مَلكُ الموت موسى عليه السلام بذلك، سأل موسى ربّه

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٤٠٧، ومسلم برقم ٢٣٧٢.

عمّا سيكون بعد أن يعيش تلك الزيادة؟ فأخبره الله تعالى بأنه سيموت بعد ذلك لا محالة. فاختار موسى عليه السلام عندها الموت العاجل. إلا أنّ موسى عليه السلام سأل ربّه سبحانه وتعالى أن يجعل قبره قريبًا من الأرض المقدّسة، بحيث لو رمى أحدهم حجرًا من موضع قبره لوصل إلى الأرض المقدّسة، لقرب المسافة بينهما.

ولكن لماذا سأل موسى ربّه أن يكون قبره بقرب الأرض المقدّسة، ولم يسأله أن يكون قبره فيها؟ والجواب، والله أعلم، أنّ الله تعالى كان قد حرّم على بني إسرائيل دخول الأرض المقدّسة، وهي فلسطين، مدّة أربعين سنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[1]. فظلّ بنو إسرائيل أربعين سنة يتيهون في صحراء سيناء، ولا يُؤذنُ لهم بدخول فلسطين. وبقي النبيّان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام في التيه مع قومهما ولم يفارقاهم.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

ووافت المنيّة هارون ثم موسى عليهما السلام وهما في التيه قبل انقضاء الأربعين. ولمّا أدرك موسى عليه السلام، عندما اختار التعجّل بالموت، أنه سيُدفن في التيه، كما دُفن فيه أخوه هارون عليه السلام قبله، وكانت نفسُه تتوق إلى أرض فلسطين، لذلك سأل الله تعالى أن يجعل قبره على بُعد أمتار من أرض فلسطين الحبيبة، فأجاب الله تعالى دعوته.

وقال نبيّنا ﷺ عندها: «**ولو كنتُ هناك لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ، إلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ**»، والكثيب هو الرمل الكثير المجتمع.

فالتخيير في الأجل هو فضيلة عظيمة خصّ الله تعالى بها أنبياءه، لكرامتهم على ربهم سبحانه وتعالى، ولم يَمنحها لغيرهم من البشر.

فالأنبياء هم خير البشر، لذلك اصطفاهم الله تعالى لحَمْل رسالته، ولن يَبلغ عبدٌ منزلتهم مهما ارتقى في صلاحه.

فالمؤمن إذا اجتهد في عمل الصاحات ثم اجتهد، فإنّ الله تعالى يُحبّه ويقرّبه حتى يرفعه إلى درجة عالية في المحبّة، وهي درجة الوِلاية، وهذه

الدرجة هي أعلى ما يمكن أن يصله المؤمن في القرب من الله تعالى، إلا أنّها دون درجة الأنبياء.

لذلك لما ذكر الله تعالى محبّته لأوليائه الصالحين، وبيّن أنه يُعطيهم كلّ ما يطلبونه، استثنى من ذلك تأخير آجالهم، فإنّه لا يعطيهم إياه ولو طلبوه.

فروى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[1].

(١) أخرجه البخاري برقم ٦٥٠٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُوَ أَشْرَفُ حَدِيثٍ رُوِيَ فِي صِفَةِ الْأَوْلِيَاءِ. وَقَدْ رَدَّ هَذَا الْكَلَامَ طَائِفَةٌ، وَقَالُوا: إنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِالتَّرَدُّدِ، وَإِنَّمَا يَتَرَدَّدُ مَنْ لَا يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَوَاقِبِ. وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ اللهَ يُعامِلُ مُعَامَلَةَ الْمُتَرَدِّدِ.

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ كَلَامَ رَسُولِهِ حَقٌّ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِاَللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ، وَلَا أَنْصَحَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ، وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، كَانَ الْمُتَحَذْلِقُ وَالْمُنْكِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ، وَأَجْهَلِهِمْ وَأَسْوَئِهِمْ أَدَبًا، بَلْ يَجِبُ تَأْدِيبُهُ وَتَعْزِيرُهُ، وَيَجِبُ أَنْ يُصَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَن الظُّنُونِ الْبَاطِلَةِ، وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَلَكِنَّ الْمُتَرَدِّدَ مِنَّا، وَإِنْ كَانَ تَرَدُّدُهُ فِي الْأَمْرِ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ، لَا يَكُونُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ مِنَّا، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ. ثُمَّ هَذَا بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ

الْوَاحِدَ مِنَّا يَتَرَدَّدُ تَارَةً لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ، وَتَارَةً لِمَا فِي الْفِعْلَيْنِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، فَيُرِيدُ الْفِعْلَ لِمَا فِيهِ مِن الْمَصْلَحَةِ وَيَكْرَهُهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَفْسَدَةِ، لَا لِجَهْلِهِ مِنْهُ بِالشَّيْءِ الْوَاحِدِ الَّذِي يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ وَيَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ، كَمَا قِيلَ:

الشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ أُفَارِقَهُ
فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ مَحْبُوبُ

وَهَذَا مِثْلُ إِرَادَةِ الْمَرِيضِ لِدَوَائِهِ الْكَرِيهِ، بَلْ جَمِيعُ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَكْرَهُهَا النَّفْسُ هُوَ مِنَ هَذَا الْبَابِ. وَفِي الصَّحِيحِ: «**حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره**»، **وَقَالَ تَعَالَى**: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الْآيَةَ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ يَظْهَرُ مَعْنَى التَّرَدُّدِ الْمَذْكُورِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَإِنَّهُ قَالَ: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»، فَإِنَّ الْعَبْدَ الَّذِي هَذَا حَالُهُ صَارَ مَحْبُوبًا لِلْحَقِّ، مُحِبًّا لَهُ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ أَوَّلاً بِالْفَرَائِضِ وَهُوَ يُحِبُّهَا، ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي النَّوَافِلِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيُحِبُّ

فَاعِلَهَا، فَأَتَى بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِ الْحَقِّ؛ فَأَحَبَّهُ الْحَقُّ لِفِعْلِ مَحْبُوبِهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ بِقَصْدِ اتِّفَاقِ الْإِرَادَةِ، بِحَيْثُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ مَحْبُوبُهُ، وَالرَّبُّ يَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَ عَبْدَهُ وَمَحْبُوبَهُ، فَلَزِمَ مِنْ هَذَا أَنْ يَكْرَهَ الْمَوْتَ لِيَزْدَادَ مِنْ محابّ مَحْبُوبِهِ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ، فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ وَلاَ بُدَّ مِنْهُ، فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمسَاءَةِ عَبْدِهِ؛ وَهِيَ الْمسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ، فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ، مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ، وَهُوَ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ، وَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ، كَمَا تَرَجَّحَ إِرَادَةُ الْمَوْتِ؛ لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مسَاءَةِ عَبْدِهِ. وَلَيْسَ إِرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مسَاءَتَهُ، كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مسَاءَتَهُ[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٣١/١٨).

فإذا كان الأولياء الصالحون، الذين هم أكثر الناس قربًا من الله تعالى بعد الأنبياء، يُعطوْن كل شيء يسألونه إلا تأخير آجالهم، دلّ هذا: أن التخيير في الأجل هو خاصٌ بالأنبياء وليس لأحدٍ سواهم.

وقد بيّن النبيّ ﷺ ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، حين ذكر هذه الفضيلة للأنبياء ولم يذكرها لسواهم، فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ**».

❖ الفائدة الخامسة: تخيير نبينا ﷺ في الرزق

وكما خيّر الله تعالى نبيّنا محمدًا ﷺ في الأجل، كذلك خيّره الله تعالى في الرزق.

فروى البيهقي عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَطِيفَةً مَثْنِيَّةً، فَانْطَلَقَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ الصُّوفُ. فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فُلَانَةٌ الْأَنْصَارِيَّةُ دَخَلَتْ عَلَيَّ، فَرَأَتْ

فِرَاشَكَ، فَذَهَبَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِهَذَا. قَالَ: «**رُدِّيهِ يَا عَائِشَةُ، فَوَاللهِ لَوْ شِئْتُ لَأَجْرَى اللهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»(١).

ففي هذا الحديث تُخبر عائشة رضي الله عنها: أنّ امرأة من الأنصار زارتها في حُجرتها، فاطلعت على الفراش الذي ينام عليه رسول الله ﷺ، وإذا هو عبارة عن عَباءة قد طُويت على نفسها. تأثّرت الأنصاريّة لحال النبيّ ﷺ، فأسرعت إلى منزلها وجهّزت له فراشًا محشوًّا بالصوف، ثم بعثت به إلى عائشة رضي الله عنها حتى ينام عليه النبيّ ﷺ فيستريح. قَبِلته عائشة رضي الله عنها وفرِحت به، وظنّت أن النبيّ ﷺ سوف يقبله، لأنها تعلم أنه لا يردّ الهديّة، كيف وهي التي روت عنه الحديث الذي جاء فيه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا»(٢).

فلمّا رجع النبيّ ﷺ إلى منزله ورأى الفِراش،

---

(١) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان (٦١/٣)، وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٢٤٨٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٢٥٨٥.

سأل عنه. فلما أخبرته عائشة ﵂ بشأنه، أمر بردّه. غير أن عائشة ﵂ تلكّأت في ردّه وأعجبَها حسنُه، كما في بعض الروايات، حتى كرّر عليها النبيّ ﷺ الأمر بردّه، ثم بيّن لها سبب إصراره على الردّ حتى تطمئنّ.

فروى الطبراني عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبَاءَةً، فَقَالَتْ: مَا لَهُ فِرَاشٌ غَيْرُ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا وَاللهِ، مَا لَهُ فِرَاشٌ غَيْرُهُ. فَعَمَدَتْ إِلَى سَبِيبَةٍ مِنَ السَّبَائِبِ[1]، فَحَشَتْهَا صُوفًا، ثُمَّ أَتَتْنِي بِهَا، فَقَالَتْ: لِيَكُنْ هَذَا فِرَاشُ رَسُولِ الله ﷺ. فَلَمَّا جَاءَ، قَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فُلَانَةُ الْأَنْصَارِيَّةُ، دَخَلَتْ عَلَيَّ فَرَأَتْ فِرَاشَكَ، فَذَهَبَتْ فَبَعَثْتُ إِلَيَّ بِهَذَا. فَقَالَ: «**رُدِّيهِ**». قَالَتْ: فَلَمْ أَرُدَّهُ، وَأَعْجَبَنِي أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِي. فَجَاءَ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَلَمْ آمُرْكِ أَنْ تَرُدِّيهِ؟**»

(١) السَّبِيبَة: قطعة من القماش رقيقة، وجمعها: سبائب. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٢٩/٢)، ولسان العرب (٤٥٦/١).

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ أَرُدَّهُ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِي. فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ رُدِّيهِ فَوَاللهِ لَوْ شِئْتُ لأَجْرَى اللهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»(١).

وقد يتعجّب بعضُ الناس من إصرار النبيّ ﷺ على ردّ الفراش مع أنه كان هديّة، ولم يكن من عادته ﷺ أن يردّ الهديّة. والجواب، والله أعلم: أنّ النبيّ ﷺ كان قد خيّره ربّه ﷻ بين أن يعيش في الدنيا عِيشة الملوك أو يعيش فيها عِيشة العبيد، فاختار ﷺ عيشة العبيد. لذلك كان يتشبّه بالعبيد في هيئة نومهم وأكلهم وشربهم وجلوسهم، ومعلوم أن العبد لم يكن يتكلف فراشًا طريًّا حتى ينام عليه، بل كان يكفيه إذا أراد النوم أن يطوي ثوبه الذي يلبسه ثم ينام عليه. فلما أهدَتْه تلك الأنصاريّة رضي الله عنها فراشًا جميلًا ومريحًا لينام عليه، قام النبيّ ﷺ بردّه، لأنه فِراش يُحاكي فِراش الملوك لا فراش العبيد. ولمّا ألحّت عليه عائشة رضي الله عنها بقبوله، بيّن لها عليه الصلاة والسلام السبب في ردّه، حتى تستريح. فبيّن لها أنّه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم ٦٠٢٩.

غير عاجز عن اقتناء مثله وأفضلَ منه، فقد عرَض عليه ربّه ﷻ أن يملّكه جبالًا من الذهب والفضّة، يتصرّف فيها كيف يشاء ويعيش بها عِيشة الملوك، ولكنه ﷺ آثر عِيشة العبيد، ومن لوازمه أن يتشبّه بهم في أحوالهم.

لذلك ورد في السنن والآثار: أنّ تشبّه النبيّ ﷺ بالعبيد في هيئة أكلهم وجلوسهم وسائر أحوالهم، إنّما وقع بعد تخيير الله له في الدنيا بين أن يعيش فيها كعِيشة الملوك أو كعِيشة العبيد، واختياره لعِيشة العبيد.

فروى الإمام أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ، قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّك، أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: «**بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**»(١).

(١) أخرجه أحمد، وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٠٢.

وروى البيهقي والنسائيَ عنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ: أَنَّ اللهَ ﷻ أَرْسَلَ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَقَالَ الْمَلَكُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا، فَالْتَفَتَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ عليه السلام كَالْمُسْتَشِيرِ لَهُ**»، فَأَشَارَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنْ تَوَاضَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ أَكُونُ عَبْدًا نَبِيًّا**». قَالَ: فَمَا أَكَلَ بَعْدَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ طَعَامًا مُتَّكِئًا حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ ﷻ»[1].

وَروى ابن سعد عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْزَتَهُ لَتُسَاوِي الْكَعْبَةَ**[2]**، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ**

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم ١٣٣٢٧ واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى برقم ٦٧١٠، وحسّن إسناده الحافظ في التلخيص الحبير ط قرطبة (٢٦٨/٣).

(٢) أَصْلُ الحُجْزَة: مَوْضِعُ شَدِّ الْإِزَارِ، ثُم قِيلَ لِلْإِزَارُ حُجْزَة للمُجاوَرة. وقوله: «وإن حجزته تساوي الكعبة»، أي: كان=

لَكَ: إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا؟» قَالَ: «فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ»، قَالَ: «فَأَشَارَ إِلَيَّ: أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ». قَالَ: فَقُلْتُ: «**نَبِيًّا عَبْدًا**». قَالَت: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مُتَّكِئًا، يَقُولُ: «**آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ**»(١).

وروى البغويَ عنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلْ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، مُتَّكِئًا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ. فَأَصْغَى بِرَأْسِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ تُصِيبَ جَبْهَتُهُ الأَرْضَ، قَالَ: «**لَا، بَلْ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ**»(٢).

قال البغوي رحمه الله: «قَالَ أَبُو سُلَيْمان

= طويلًا لدرجة أن معقد إزاره يساوي طول الكعبة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣٤٤)، ومجمع بحار الأنوار (١/٤٥٩).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٢٨٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبيّ ﷺ (٢١٣)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد برقم ١٤٢١٠، وقال: رواه أبو يعلى وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١١/٢٨٧)، وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٥٤٤.

الْخطابِيّ: يحْسب أَكْثر الْعَامَّة أَن المتكئ هُو المائلُ الْمُعْتَمد على أحد شقّيه، وَلَيْسَ معنى الْحدِيث مَا ذَهَبُوا إليْهِ، وَإِنَّمَا المتكئ هَاهُنَا هُو الْمُعْتَمد على الوِطاء الّذِي تَحْتَهُ، وكلُّ من اسْتَوَى قَاعِدًا على وِطاء فهُو متكئ. وَالْمعْنَى: إِنِّي إِذا أكلتُ، لمْ أقعد مُتَمَكنًا على الأوطئة، فِعل من يُرِيد أَن يستكثِر من الْأَطْعِمَة، وَلَكِنِّي آكلُ عُلقة من الطَّعَام، فَيكون قعودي مستوفزًا لهُ. ورُوِي أنّهُ ﷺ كَانَ إِذا أكل احْتفز، وَقَالَ: «**آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ**». ورُوِي أنّهُ عليْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام أُهْدِي إليْهِ هَدِيَّة، فَلم يجد شيْئًا يَضَعهُ عليْهِ، فَقَالَ: «**ضَعْهُ بالْحَضِيضِ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ**»، والحضيض: الأرْض. ورُوِي أنّ النّبيّ ﷺ زجر أنْ يَعْتمِد الإِنْسانُ على يدِهِ اليُسْرى، إِذا كَانَ يأْكُلُ»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد خيّر الله سبحانه محمدًا ﷺ بين أن يكون عبدًا رسولًا وبين أن يكون نبيًّا ملِكًا، فاختار أن يكون

(١) شرح السنة للبغوي (٢٨٦/١١).

عبدًا رسولًا. فالنبيّ الملِك، مثل داود وسليمان ونحوهما عليهم الصلاة والسلام. قال الله تعالى في قصة سليمان الذي قال: ﴿...رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: أعطِ من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك. فالنبيّ الملِك، يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرّم الله عليه، ويتصرّف في الولاية والمال بما يحبّه ويختار من غير إثم عليه. وأما العبد الرسول، فلا يعطي أحدًا إلا بأمر ربّه، ولا يعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربّه بإعطائه، ويولّي من أمره ربه بتوليته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إني والله لا أعطي أحدًا، ولا أمنع أحدًا، إنما أنا قاسم أَضَعُ حيث أُمِرْتُ**»[1].

(١) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان لابن تيمية (ص: ٣٦).

الخاتمة

وفي الخِتام، نخلص بعد هذا الشرح إلى القول: بأن الله ﷻ قد خصّ رسله الكرام بخصائص لم يمنحها لغيرهم من البشر، من أجل إظهار فضلهم عند الله وكرامتهم عليه.

وكان من جملة خصائصهم: أنّ الله تعالى خيّرهم في آجالهم، وهذا لعَمري غايةٌ في الإكرام، فسبحانه من ربّ جوادّ لا حَدّ لعَطائه.

واللهَ تعالى نسأل أن يَمنّ علينا وعلى والدينا وأحبابنا بمُجاورة أنبيائه في جنّات النعيم، فهو الجواد الكريم.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الحديث	٩
شرح الحديث	١١
زيارة الوداع	١٧
فوائد الحديث	٢٩
الفائدة الأولى: التحذير من الفتن المظلمة	٢٩
الفائدة الثانية: مدى تعلق الصحابة بالنبيّ ﷺ	٣٢
الفائدة الثالثة: فضل الصحابة الذين ماتوا في حياة النبيّ ﷺ	٤٥
الفائدة الرابعة: تخيير الأنبياء في الأجَل	٤٧
الفائدة الخامسة: تخيير نبينا ﷺ في الرزق	٥٧
الخاتمة	٦٦